وأننا قد عرفنا أدوات النحو والبلاغة معرفة تمكننا من الخبرة بالنصوص أولا ، وتاريخ الأدب ثانيا . ولكن أمينا ثائر لايمل ، فلا نحن قادرون على أن نحول النحو إلى درس يفيد فى تمحيص المعنى ، ولا نحن قادرون على أن نجعل البلاغة درسا يجعل تفسير النص وخدمته عملا يعتز به المرء فى عصر العلم .

كانت كلمة العلم عميقة الجذور فى عقل شيخ تخرج فى مدرسة القضاء الشرعى . . كان الفقه والأصول خلاصة اهتمامه . أخذ أمين يقارن بين قضايا الرواد فى الأدب وتاريخه ومطالب العلم التى أخذت عليه عقله ، والقارىء الشاب محتاج إلى شهادة شيخ مثلى . كان الأستاذ أمين يرى قضايا الأدب غير واضحة ولا دقيقة ، أو يراها حائرة بطريقة لايمكن السكوت عليها . كان تناول الأدب بعد العناية بالفقة والأصول ذا أثر عميق . .

وأصبح مولعا بتحليل القضايا التى نتداولها ، وغالبا ما تستحيل القضايا على يديه إلى رماد . وخيل إلى منذ وقت مبكر أن شيخى يرى أن بضاعة الأدب العربى جديرة ببعض الريب . . ولا أنسى يوم قلت له منفردا : لقد فهمت عنك أن دراسات القسم لاتستحق اسم المعرفة ، فصمت مستحييا مبتسما مشجعا حريصا على القصد فى الحكم والعناية بالقضايا الجزئية .

أنكر أمين معالم غير قليلة من دراسة الأدب وتاريخه ، كان منطقه : لم العجلة ؟ ولم الأخذ بأهون الوسائل لمواجهة أشق الغايات . لم نترك النصوص الموجزة المفردة إلى طموح واسع غير محدد القسمات . هنا وضحت نشأة الأستاذ أمين فى حجر البحث عن أحكام أو قضايا محددة ذات إطار معلوم ، ووضحت حساسيته بالفروق بين الألفاظ والتراكيب وأثرها فى فهم المعنى .

لقد أغرى كل من يستمتع إليه بأن يعامل الألفاظ فى حذر واحتياط . كانت العناية بتاريخ الأدب تعنى أننا فرغنا من هم العناية بالألفاظ ومعانيها إلى قضايا خطيرة عن حياة العقل الأدبى قبل الإسلام أو بعد الإسلام . . كان الأستاذ أمين يرى معرفة الجزئيات جديرة بالاهتمام الذى يوشك أن يضيع وسط العناية بتاريخ الأدب .

ولاشك فى أن أمينا حينما أنكر تاريخ الأدب ، وأنكر الأدوات الهشة التى نلجأ اليها فى خدمة النصوص فارق زملاءه مفارقة لم تكد تغيب عن أحد . وربما كان من الحق